



قبل الخروج من التاريخ

د. رءوف عباس

23 ديسمبر 1998

للعالم البارز د. فوزى منصور كتاب نشر عام 1991 بعنوان "خروج العرب من التاريخ" رصد فيه عجز الأمة العربية عن مواجهة أنظمة الحكم الاستبدادية العاجزة التي تفتقر إلى الشرعية، وتحول الرابطة القومية على يد العرب إلى عامل فرقة واستضعاف. وبعد تحليل علمي لأسس واسباب وانماط التطور الاجتماعى، رأى ان الأمة العربية فى طريقها إلى التهميش أو الخروج من التاريخ ما لم يحدث تطور اجتماعى اقتصادى يغيثه التوحيد القومى والبناء الاقتصادى الاجتماعى الديمقراطى المتجه نحو افاق اشتراكية.

تذكرت هذا العمل العلمى المهم الذى لم ينل حظه من اهتمام القارئ العربى، لأن زامر الحى عندنا لا يطرب ولا ننا لم نعد نهتم بعقدنا واصبحنا نلهث سعياً وراء لقمة العيش بعدما اصابنا السبات الروحى والسلوكى وتذكرت هذا العمل المتميز وانا اتابع بقلب فرقة الغم قصف العراق واذلال الامة العربية كلها من خلال امتهان حرمان شعبي العراق وفيما عدا مظاهرات محدودة خرجت فى هذا القطر او ذلك تعلن رفضها للهوان فنتردها قوات الامن عى اعقابها لا نكاد نسمع لأمتنا صوتاً ولا نحس لها حركة يتابع الجميع انباء الهوان والانكسار العربى وكأنها تخص امة اخرى تعيش فى كوكب آخر.

ويدور فى ذهنى الشريط الاسود شريط الاحداث التى قادتنا إلى هذا الهوان منذ وجهت ضربة قاضية إلى المشروع القومى العربى فى يونيو 1967. ضربة وجهتها القوى الإمبريالية لطليعة شاخت قبل فوات الاوان لخلل خطير فى البناء الديمقراطى ورغم رفض الشعب للهزيمة واصراره على ان يسترد ترابه الوطنى فكان انتصار اكتوبر 1973 الذى كان لسلاح البترول فيه وزن لا يستهان به. بدد النصر فى سراديب التسويات التى جرت وراء سراب السلام الشامل، فعادت بقبض الريح فزادت عوامل الشقاق من التمزق القومى وسلمنا امورنا لعدونا التاريخى الذى لا يريحه سوى تهميشنا.

وخلال العقدين الاخيرين فعلت الثروات النفطية فعلها فتشوهت القيم الاجتماعية وازدادت أنظمة الحكم كبتاً للمبادرات الشعبية، وهمشت بدورها دور المشاركة الشعبية رغم حرصها الدائم على إرتداء قناع الديمقراطية ولم تجد الإمبريالية – عدونا التاريخى مناخاً انسب من هذا المناخ الملوث تستعدى بعضها على بعض، وتستقطب اطرافاً عربية تضرب بها اطرافاً عربية اخرى.

جففت منابع الثورة الفلسطينية ونفخت فى نظام صدام حسين فتركته يحارب معركتها ضد الثورة الإيرانية حتى إذا تضخمت قوته اغرته ضمناً بغزو الكويت ليتم استكمال الهيمنة التامة على امة فقدت الدليل بعد ما فقدت الوعى. استنزفت مدخرات دول الخليج سداداً لفاتورة عاصفة الصحراء وظل صدام يلعب عندها دور خيال المآته الذى ترهب به اولئك الذى تضخمت فوائض اموالهم لاستنزاف اكبر قدر ممكن منها سداداً لفاتورة "تغلب الصحراء".

استطاعت ان تورط اطرافاً عربية فى عاصفة الصحراء وضمنت سكوت اطراف عربية عن "تغلب الصحراء" فقد صرح كلينتون فى اليوم الثانى لضرب العراق انه اتصل بالقادة العرب وأنهم تفهموا دوافع الحملة! كم تمنيت ان اقرأ او اسمع تكذيباً لما قال وسمعنا بلير يقول امام الصحافة إن العرب وافقوا على الحملة فقد تعودوا ان يقولوا لنا غير ما يعلنون لشعوبهم!! وتمنيت ان اسمع تكذيباً او حتى تعليقاً من مسئول عربى ولكن هيهات.

كم تمنيت ان يصدر اى برلمان عربى قراراً بعدم الالتزام بقرار الحظر الذى فرض على العراق كما فعل البرلمان الروسى او ان تسحب الدول العربية سفرائها كما فعلت روسيا او ان يبلغ رد الفعل العربى درجة الموقع الصينى او الموقف الفرنسى تركنا شعب العراق يسقط تحت الانقاض، دون ان ندرك ان دور غيره من الشعوب العربية قريب ما دمنا نسير فى طريق الخروج من التاريخ.